شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٦٥

حقيقة رسالة الأنبياء

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

١) رابط الحلقة
http://www.altarefe.com/cnt/tvp/1053

أهمية رسالة الأنبياء

إذا علمنا إن الله عز وجل إنما خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات :٥٦) فخلق الله تعالى الخلق لعبادته وأرسل إليهم الرسل حتى يعلموهم تلك العبادة فإذا علمنا هذا به نعلم أهمية معرفة عبودية الله تعالى بالنسبة للمكلفين وبه نعلم أهمية حقيقة رسالة الأنبياء والعمل بها ، وذلك أن الإنسان إذا علم أنه وجد في مكان لغرض معين وعمل معين ثم انصرف بعمل آخر فإنه في الغالب مجنون أو أنه معرض من أهل الشبهات والشهوات !.

ورسالة الأنبياء هي التي تربط المخلوقين بالخالق والعبد بالمعبود حتى لا يحول حائل بين الله تعالى وعبادته من المدلسين والمشوشين والمتربصين ومن أرادوا أن يستغلوا الرسالة لصرف قلوب الناس إليهم سواء كانوا ممن يدعو إلى الله على غير بصيرة أو ممن قد بدلوا دين الله تعالى من الأحبار والرهبان أو بحسن قصد من الجهالة لهذا فأهمية معرفة هذه الحقيقة هي معرفة سبب الوجود وسبب الإيجاد فربما ينصرف عن حقيقة سبب وجوده فيجهل أهمية رسالة الأنبياء فهي لا تتضح إلا بمعرفة الأصل التي تدعو إليه من التوحيد وعبودية الله وحده وهي التي تنجيه وتصل به للغاية .

كيف تُفهم رسالة الأنبياء

إذا كان الرسول مُرسل من الله تعالى فلا تُعرف الرسالة إلا من الرسول وبلسان ذلك النص الذي نزل به وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وجعل له عقلا وأنزل عليه نصا ليفهم به هذا الوحي ، ودين الله واحد وهو الاستسلام لله والخضوع والعبودية له وحده من غير صرف شيء لغير الله .

والله تعالىٰ أنزل الوحي بنص معين علىٰ كل نبي من الأنبياء ، وأما الدين فواحد وهو الاستسلام لله تعالىٰ والخضوع والعبودية له وحده بداية من سيدنا آدم إلىٰ نبينا محمد ﷺ .

لهذا يقول الله تعالىٰ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل :٣٦)

ويقول تعالىٰ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء :٢٥)

إذن دعوة الرسل والأنبياء واحدة وإن اختلفوا في الشرائع .

يختلفون في صور العبادة فالصلاة واحدة لكن يختلفون من جهة عددها وكذلك الصيام كما في قول الله تعالىٰ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة :١٨٣)

وكذلك عبودية المناسك من عهد إبراهيم ومن جاء من بعده إلىٰ عهد محمد ﷺ فأصلها واحد وإن اختلفت من جهة الشرائع كما قال الله تعالىٰ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة :٤٨) فالشرعة واحدة لكن جعل لها فروع وأساليب فيها نوع من الاختلاف بين الأنبياء وهذا هو المقصود من كلام رسول الله ﷺ (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٢] ولهذا يقول الله تعالىٰ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران :١٩) فدين جميع الأنبياء واحد هو الإسلام لكن يقع الانحراف في أتباع الأنبياء لبعد العهد فينحرفوا ; فيبعث الله تعالىٰ نبي يعيدهم إلىٰ الحق ولهذا جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي)[٣] المراد أنه في تلك الحقبة كان النبي يتلو النبي يتوافرون إذا قبض الله نبي بعث نبي أخر وقد يقول قائل لماذا لا يعمر النبي لجيلين وثلاثة ؟ نقول الله تعالىٰ له حكمة في أن يكون النبي من نفس الجيل ليكون تأثيره أعظم في كونه لم يأت بموروث فهذا أعظم في التأثير وكذلك كيلا تصرف العبودية له فبه شيء من الإعجاز وخوارق فيعبدونه من دون الله كما عُبد من دون الله بعض الأنبياء.

٢) رواه البخاري (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥).
٣) رواه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢) .

فحقيقة رسالة الأنبياء من أوجب ما يجب على الإنسان أن يعلمها ولا يمكن أن يصل لمرضاة الله إلا على هذا النحو وهذا الترتيب في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ في هرمية الرسالة وما هو المتقدم والمتأخر ، وما هو أولى مما هو دونه ، فالشرائع ليست كالكتاب صفحاته على حجم واحد متشابهة يأخذ منها ما شاء ويتناوله ، ولهذا جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، أَفْضَلُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)[٤].

فهي شبيهة بالهرمية ، كيف يعلم الإنسان ذاك الهرم ؟ وما هو الأولى من هذا وهذا ، يعرفه برسالة الرسل وحتى لا يأخذ الإنسان من الدين ما يشتهي ، فالله عز وجل فطر الإنسان على فطرة سليمة يعلم بها الحق من الباطل ، يميز الخبيث من الطيب فقد طبع الله تعالى الإنسان على طبع يعرف به الحق استقلالا لو جاءه من المنكر فتجد أن الإنسان لديه استعداد في معرفة الحق وتمييزه مثال ذلك : تجد الإنسان يدرك الروائح الطيبة من الروائح الخبيثة وهذا طبع عليه وفطر عليه ، وبه أيضًا يفرق بين الأخلاق الطيبة والسيئة كحال الصبغة كما قال الله تعالى ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾(البقرة :١٣٨) ولهذا يقول الله تعالى ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم : ٣٠) فالله أوجد هذا الأمر الذي فطر وطبع الناس عليه به يدركون الخير من الشر لكن لا يوجدونه ومعنى هذا أن الروائح موجودة في الطبيعة لكن تهديهم فطرهم إليها ، مثل ذلك العبودية وصرفها لله فأوجد الله فطرة في الإنسان يدراك بها هذا الأمر الموجود المعلوم فحتى الملحد يعلم بوجود الله تعالى ولو كابر بعدم وجود الخالق تجده ينادي ويستغيث بالله حينما تنزل به الكروب ، لهذا بالفطر يميز الإنسان الحق من الباطل ، إذا لم يطرأ عليه تبديل ، ومن أين يأتي التبديل ؟ يأتي ممن حول الإنسان لهذا يقول ﷺ (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)[٥] هو مولود على الفطرة يميز الخبيث من الطيب لكن إذا طرأ عليه شيء غيره فيطبع الإنسان على تمييز

٤) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

٥) رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨).

الروائح الطيبة من الخبيثة لكن إذا وضع عند النتن كالجيف استساغها ، فأول ما يأتيها ينفر منها لكن إذا بقى عندها مجاور ليوم يومين تعود عليها حتى يستنكر إنكار الوافدين إليه قال : إني لا اشعر بهذا الشيء ! .

وهذا الإنسان يُطبَّع على الباطل ولا يُطبَّع على الحق لأنه مطبوع أصلًا عليه لا يحتاج إلى تطبيع كما قال الله تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾(الروم : ٣٠) وقال تعالى ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾(البقرة ١٣٨:) .

هذا الأمر الذي قد دلت الشريعة على سلامة طبع الإنسان وأنه لا يمكن أن يوجد شيء في ذاته مستقل ، وكذلك ما يتعلق في جوانب العبودية فلا يستطيع الإنسان أن يوجدها ويبتكر طريق للعبودية فلا يستطيع الوصول إليها إلا عن طريق الرسالة ; فلابد من الوحي .

وقد أوجد الله في الإنسان عقل بالبحث به يوجد دار ومسكن ومأكل ومشرب وأما العبودية لابد من الوحي ، والإنسان يخلط بين هاتين المدرستين : مدرسة الماديات والعقل ومدرسة الرسل والوحي، والرسل لم يهملوا ذلك الجانب بل جاءوا على تأكيده ، بعض الناس يربط الشرائع في هذا الجانب لأنه وجدها مشتركة عند الأنبياء فالكل يؤكد على الصدق والأمانة والكرم وإغاثة الملهوف ومحاسن الأخلاق فكلها محمودات ، وكذلك تحريم الكذب والنميمة والسرقة والخيانة والغدر فكلها مذمومات مما يوجد في جميع الشرائع وهي موجودة عند أهل الفطر ولو لم يبعث نبي حتى الملاحدة يعرفونها لأنها مما طُبعوا عليها ، كحال إدراك الإنسان للمحسوس هذا حار وهذا بارد هذا طيب وهذا خبيث ، والله عز وجل يقول ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾(الروم : ٣٠) وهناك نوع من التغيير في الفطر مثل من يحمدوا الزنا في ذاتهم لكن لا يحبوا أن يزنى بمحارمهم أو أزواجهم ونحو ذلك هذا غيّبه الطمع الذاتي كذلك يحب البعض التزوير والتدليس ليأخذ نصيب من المال ولا يحب أن يُزوّر عليهم فهذه شهوات وليست طبع وتطبيع ; وذلك لقول الله تعالى ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء :١٢٨) فدعوة جميع الأنبياء جاءت بالتأكيد على الجوانب الفطرية والمرور عليها لأنها ثابتة ولا تتغير وأما

الأمر الأخر وهو الأهم وهو الأمر الذي لا يمكن أن تدل عليه فطرة الإنسان بذاته ، لكن الشريعة تستميل الفطرة السليمة لإثباته فالنبي صادق فلماذا لا تصدقه ؟ أخذ العهود والمواثيق من الأمانة فلماذا لا تؤديه ؟ وغير ذلك تستعملها في إثبات الحق كما يستعمله في البيع والشراء والزواج يستعمل تلك المبادئ الصحيحة فهي مما فطر عليه الناس قبل وجود الأنبياء لأن الله خلق الناس عليها وطبعهم عليها لهذا فهي أساس وقاعدة تُفهم عليها مصالح الإنسان في دينه ودنياه .

رسالة النبي ﷺ

قبل الدخول في رسالة النبي ﷺ يجب أن يشار إلى أن : جميع الرسائل تنقسم إلى قسمين : قسم الأصول وهو توحيد الله تعالى ولا يختلف نبي عن نبي فيه ، والقسم الثاني : قسم الفروع ، وقسم الفروع ينقسم قسمين شرائع وفطر ، والفطر هي التي يتفق عليها جميع الأنبياء من الصدق والأمانة والعفاف والحياء وبر الوالدين والإحسان للجار والسعي في الأرض وطلب الرزق وغير ذلك .

وأما ما يتعلق بأمور الشرائع وهي أحد قسمي الفروع وهي معرفة الحلال والحرام فالله تعالى قد جعل لكل نبي شرعة ومنهاج كما في قوله تعالى﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة :٤٨) هذه الشرائع اختلفت من نبي لنبي ولو تقاربا فشريعة عيسى عليه السلام قد اختلفت عما سبقه من الأنبياء كما في قوله تعالى ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (آل عمران :٥٠) يعني أتيتكم بشيء ما لم يكن فيما سبق من شرائع فهذا مما خص به الله نبي عمن قبله ، وقد يحرم شيء في شريعة ويحلله في أخرى والعلة في ذلك:حتى يظهر الإتباع والتسليم هل أنت تتبع النبي ؟ أم تتدرع وتدلس بالنص القديم ونحو ذلك ، فالإنسان يدّعي أنه يعبد الله ويوحده بطريقته التي يريد فيتبع النبي في القرن الفلاني ويتبع النبي في القرن الفلاني ولا يتبع النبي محمد ﷺ خاتم المرسلين ;ولهذا قال الله

تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران :٣١) فإتباع النبي بذاته هو محل الإنقياد لهذا سيدنا عيسى ينزل في أخر الزمان ويتبع دعوة نبينا ﷺ كما جاء في الحديث (عَنِ الشَّعْبِيِّ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَغَضِبَ ، وَقَالَ : " أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا ، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي ")[٦] يعني هل لديك شيء من الريب والشك ؟ فلو كان موسى ي ما وسعه إلا أن ينقاد للنبي ﷺ ، ولهذا سيدنا عيسي في أخر الزمان يأتي بشريعة محمد ﷺ وليست شريعته التي كان عليها لأن شريعة محمد هي الخاتمة .

فرسالة النبي ﷺ على الصنفين فنخرج أصحاب الدعوات الذين يقولون أنها دعوة توحيديه فكل يعبد بما شرع في كنيسة في كهف وهذا من الخطأ والضلال لأن الإيمان برسالة محمد ﷺ واجبة ولا يصح الإيمان إلا بها وكذلك الإتباع بما جاء به ﷺ واجب ومن تولى عن النبي ﷺ فهو معرض عن الله ومكذب لما جاء به فيسمى معرض كاذب في دعواه التي يزعم فيها الإيمان بالرسالة ولكنه يعبد الله على شريعة سابقة .

٦) رواه أحمد (١٤٧٣٦) ، وحسنه الألباني في " إرواء الغليل " (٣٤/٦) . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أسانيد هذا الحديث " وهذه جميع طرق هذا الحديث ، وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به ، لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلا " انتهى من " فتح الباري " (٥٢٥/١٣) .

إدعاء النبوة للفلاسفة وذوي الأخلاق

لا يجوز نسب النبوة لأحد إلا بدليل من الكتاب والسنة ، وأما أن يُقال فلان نبي وفلان ليس بنبي وليس ثمة دليل إلا ما يلتمس بحسن القول والمنطق ، فحسن القول والمنطق هذا أمر فطري وهذا من الخلل الذي يقع في عدم إدراك حقيقة الأنبياء يظن أن رسالته الصدق فرسالة الأنبياء لم تقتصر على الصدق والأمانة والكرم وإغاثة الملهوف وهذا فطري بل يوجد حتى في البهائم من إغاثة الملهوف وإطعام الجائع ونصرة المظلوم وهذا مُدرك محل إجماع عند أهل النظر ، ومن حشر البشرية في هذا الأمر فإنه يزج بالبشرية في دائرة البهيمية والله قد كرمها عن ذلك بالوحي وجعل للبشر رابط بينه وبين الله وهي العبودية عن طريق الأنبياء .

والذي يقول فلان هذا نبي وذاك نبي .. هذه مدرسة قديمة التي تجعل النبي يوافق العاقل الفيلسوف فيوازيه من جهة منزلته في الأمة ويدعو لهذا كثير مثل الفارابي وابن سينا وفلاسفة اليونان وغيرهم ممن يجعلون الفليسوف الذي يأتي بالحقيقة والطهر والخير في منزلة النبي ولو لم يكن له وحي من السماء بل يجعلونه نبيا بزعمهم أنه لا يمكن أن يصل لهذا الحق إلا برسالة سماوية !.

فالذي يثبت الرسالة لبوذا والفيلسوف الفلاني والحكيم الفلاني هذا من الجهالة العظيمة في دين الله والسبب في ذلك الجهل بحقيقة رسالة الأنبياء وما أمر به من توحيده وصرف العبادة له وحده إذا لم يُدرَك هذا الامر يفقد جانب العبودية عند كثير من القراء والكتاب فلم تُدرك معه الأصل في عبودية الله تعالى فينظرون للجوانب الفطرية ويظنون أنها رسالة الأنبياء وهذه موجودة عند أرباب الفطر على اختلافهم ولكن شهواتهم تغلبهم على الكذب فجميع البشر يدركون أن الصدق محمود والكذب مذموم ويدركون أن القتل وسفك الدماء مذموم وأن الدماء معصومة .

كما تخرق الفطرة يخرق الدين وهذا من المهمات لفهم حقيقة رسالة الأنبياء ، هل الأنبياء جاءوا لتعليم الناس أن الصدق محمود والكذب مذموم ... هذه أوامر فطرية جاء الأنبياء بتأكيدها لهذا الذي

يصدق في حديثه ويؤدي الأمانة أمره فطري لا علاقة له بجوانب العبودية التي تثبت بها الكفر والإيمان لكن لو وجدت أجر عليه بعد التوحيد وأما لو وجدت فيه بلا توحيد فلا تغني عنه.

لهذا إذا اشتركنا في هذا المفهوم وظننا أن الجوانب الفطرية هي التي يثبت فيها الكفر والإيمان ضللنا ودخلنا في دائرة الحيوان كما جاء في الحديث (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ : لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٧] هذه رسالة أنه حتى البهائم تدرك الحقوق فيما بينها فيحاسبها الله على ما تدرك فيُقتص للشاة القرناء من الشاة الجماء لكن لا يقتص الله تعالى من الأسد والذئب في تعديهم على الشاة لاختلاف الطبائع فيما بينهم لأن الله فطرهم على أخذ رزقهم منهم وأما الشاة تدرك ألم الشاة .

ولهذا المظالم بين العباد يقضي الله فيها بين العباد لكن لا تحدد إيمان الإنسان أو كفره هل أنت تعبد الصنم أم توحد الله ؟ لهذا قد تجد من ينفي وجود الخالق وهو أصدق الناس وتجده وفي ويغيث الملهوف ويضع أوقاف للأيتام وينفي وجود الخالق فأي جنة يدخلها وقد جحد حق الله !.

فالعدل مع الناس فطري طبع الله الناس عليه كما طبعت البهائم والاستجابة للرسل هي المحك لهذا جاء من **حديث أبي هريرة** (عَنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[٨]

والمراد بهذا أن النبي أراد أن يبين أن حقيقة الإتباع أن تؤمن بالرسالة التي جاء بها النبي ﷺ وأن من استجاب لداعي الفطرة المجرد لم يكن فيه مزيد استجابة لأمر الله وإنما استجبت للفطر من الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ; فالامتثال لعبودية الله هي الفارق بين المؤمن والكافر وأما الظلم والسرقة والبغي فهي كبائر مظالم محرمات لها منازلها لكن الإيمان والكفر هو ما كان في حق الله محضًا مما أخبر به وثبت لدى الناس باليقين والقطع فإن جحوده وإنكاره كفر بالله سبحانه وتعالى.

٧) رواه مسلم (٢٥٨٢) والترمذي (٢٤٢٠).
٨) رواه مسلم في كتاب الإيمان رقم (١٥٣) ١ / ١٣٤ والمصنف في شرح السنة ١ / ١٠٤ .

انتقاء الدعاة من رسالة النبي ﷺ

دائمًا الانتقاء ما يكون في الجوانب المشتركة عند أصحاب الطبائع لهذا تقدم الإشارة أن ما جاء به الأنبياء منه ما اتحدوا عليه ومنه ما اختلفوا وما اتحدوا فيه منه التوحيد ومن الفطر ، فيقع التبديل في الشرائع وأما الفطرة لا يقع فيها التبديل من مكارم الأخلاق والمحمودات وغير ذلك فيبقى الصدق محمود من أدم لقيام الساعة ، ويبقى الكذب مذموم من أدم لقيام الساعة فهذه المحمودات والمذمومات مشتركة بين البشرية جميعا ومحمودة أيضًا عند جنس الحيوان فالبهائم تتجانس وتتراحم في الجنس الواحد فيما بينها فالشاة ترحم الشاة الصغيرة وإن لم ترحم جنس أخر لأن الفطرة تباينت ، لهذا الإنسان يرحم الإنسان لكنه قد يدوس الحشرات وهو يمشي لأنه لا يشعر بها ولا يحاسبه الله تعالى عليها ولكن يحاسبه على ما يدرك .

ثمة مدرسة فلسفية قديمة ما قبل الإسلام من فلاسفة اليونان وحتى في الهند وهي المدرسة المشتركة التي تشترك فيها الإنسانية ودعا لها جمع من فلاسفة المشائيين ممن اتبعوا ارسطوا وسقراط وأفلاطون كابن سينا والفارابي وابن رشد والكندي ، وهذه المدرسة تدعو للأمور الإنسانية المشتركة وتجعلها حقيقة الحق والباطل وأنها هي في الصدارة وما عداها فهي أمور ثانوية من عبودية الله وحق الله في العبادة فيجعلونها مُختلف فيها فيدعى للمشترك ويدع المختلف عليه !.

هذه المدرسة هي من أخرجت لنا تيارات الليبرالية وغيرها وأثرت على الدعاة وعلى أمة الإسلام من حيث لا يشعرون أثرت على الناس وعلى الكتاب فأصبح بعض الدعاة يبحثون عن دليل في الكتاب والسنة عن الصدق والأمانة وكأن الشريعة جاءت بتقرير أن الصدق محمود وقد تجد المؤمن يتنكر للمؤمن في حين يجد عاطفة جياشة لحيوان يرحمه ويضج العالم من أجله !.

فأصبحت هذه المدرسة تطوع لها الأدلة من جميع الديانات وأصبح الداعي إذا قام بمجلس ينتقي هذه الأشياء ولا يتعداها لأن العبودية والحلال والحرام مُختلف فيه فيتوجس منها خيفة ، فيتكلم في الفطريات بمئات المحاضرات وتجد اليهودي يدلل على هذا من كتبه والنصراني من كتبه والمسلم من كتبه وأما عبودية الله وتوحيده وهي محل الصراع يتركونها .

والنبي ﷺ لما كان في مكة لو دعا للصدق والامانة وإغاثة الملهوف والانتصار للمظلوم لما خالفه أحد ولكنه تكلم بحق الله وهو أعظم الحقوق لأن أعظم الأمانة عبودية الله بألا تُصرف جباه الناس للأوثان والاصنام فوقع الصراع .

لهذا الإشكالية أنه يوجد كثير من الدعاة يدعون لله ويقول أتكلم بحق ! . نقول أنت تتكلم بحق لكن يفضي إلى باطل ، لهذا يقول الله تعالى﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِّ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِّ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(يوسف :١٠٨) فتوجد دعوة لكن على غير بصيرة ، قد يقول قائل هو حق لكنك تكلمت بحق غيّب أحق منه ، وهذا من مواضع الخلل فقد ينشغل الإنسان بمبادئ صحيحة مؤكد عليها لكن غيب ما هو أهم منها من توحيد الله وهو أولى المواضع .

فقد يفوته بعض الدعاة فيأتي لأقوام ويعلمهم الآداب والأخلاق والإحسان إلى الأزواج والأبناء والجيران والأمانة والصدق وعدم السرقة واغتصاب الحقوق وعدم التعدي هذا مهم لكن إذا خاطب أقوام لديهم شرك ووثنية ، كيف يغض الطرف عن التوحيد والعبودية !.

فهذا يتكلم بحق يفوّت ما هو أحق منه ، وقد وقع في ذلك الكثير فأصبح منهم من يتكلم لسنين طويلة في الفضائل ولا يتكلم عن محل الصراع والمدرسة الغربية تدندن على هذا الأمر وهو المشتركات الإنسانية ويغضون الطرف عما هو أولى . فيقولون دلل أيها اليهودي من مصادرك من التوراه ، ودلل أيها النصراني من الإنجيل ، ودلل أيها المسلم من قرآنك فيدخل في هذا أقوام وعلماء ودعاة يقولون نحن نتكلم بحق ! . نقول ربما بعض الحق يفوت أحق منه فيصبح باطل في مآله ولو كان في ذاته حقًا .

تعظيم البشر من دون الله تعالى

الله تعالى قد بيّن قدره في كتابه وسنة نبيه ، وإذا جهل الأكبر فإنه يُجهّل صغر من دونه وإذا جهل الأعظم جُهِل قدر من دونه ;ولهذا بين الله تعالى أسمائه وصفاته وقدرته وذاته حتى نعرف غيره ولكن إذا جهلوا قدر الله تعالى ظنوا أن هذا العظيم هو أعظم شيء ، كما عبد فرعون وهامان من دون الله ذلك لأنهم جهلوا الأعظم والأكبر .

ولهذا يجب أن يعلم الإنسان الأعظم في الغنى والقوة والرحمة واللطف فيعرف من دونه ، وهذه الحقيقة التي تغيب عند كثير من الناس تغيب عندهم لوازمها ، فلا يعظم سلطان من دون الله إلا إذا جهلت سلطان الله .

لهذا الرسالة إلى العلماء أن يعرّفوا الناس بالله بدلا من معرفتهم بحقيقة العلماء والحكماء والوجهاء والتي قد لا تنتهي بتغير الأشخاص فإذا عرّفت بالله لا تحتاج لتعريف مقادير الأخرين ففي كل بلد حاكم هنا وهناك وأصحاب أموال هنا وهناك .

وكل ما ضبط الإنسان عبودية قلبه وحقية رسالة نبيه ولماذا جاء الله بالتعريف بنفسه علم أنه أراد أن تعرف الجميع .

فتعلم أن كل كبير مع الله صغير وكل عظيم مع الله حقير وكل غني مع الله فقير ، وهذه لا يمكن أن تدرك إلا إذا أدركت القطب وهو معرفة حق الله في ذاته وهذه مهمة العالِم في تبصير الناس كما قال الله تعالى﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف :١٠٨) يعنى سبيلي ومن جاء معي فليأخذ بترتيب وتنظيم ما جئت به.

ومن يدعو إلى الأخلاق فقط ثلاثين سنة يدعو لحق لكنه يغيب ما أحق منه فيكون داعي على أبواب جهنم وإن دلل من الكتاب والسنة على القصص والآداب والسلوك والفضائل والأعمال وغيرها مما

يتفق فيها البشرية ، دلل عليها لكن لا تغيّب الرسالة الأولى ، ولهذا جاء في حديث عبدالله بن عباس كما في البخاري عن هرقل لما دعوه للإسلام قال (وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَّ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ)[٩] فبدأ بالرسالة الأهم وهي التوحيد ونبذ الشرك قبل الفطر والأخلاق فالفضائل جزء من الرسالة .

ولهذا وجد تيار كبير تأثر بهذه المدرسة أراد أن يجمع رسالات الأنبياء ويضعها في قالب الإنسانية المجرد فأدخل جنس عمل الإنسان في جنس عمل الحيوان ! والله تعالى قد كرمنا عن هذا .

والانتقاء ليس لأحد لا لداعية ولا لعالم أن ينتقي من الشريعة ، وإنما انتظام الشريعة لابد منها على تراتيبها وأولوياتها فالقضية ليست في الحق الذي يقال وإنما في سياقاته ومآلاته وما هو أولى منه وما هو متروك فربما يتسبب العالم بالعمل بالمفضول في تغييب الفاضل والأهم فيتسبب في قطع سبيل وصول الناس للحق فيضل الناس ويظن أنه قد دعا إلى الحق .

۞

٩) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله (١٠٧٤/٣) ، رقم : (٢٧٨٢).